المحاضرة الثانية:

أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن 15 ومطلع القرن 16

في فترة العصور الوسطى شهدت إفريقيا قيام العديد من الدول الكبرى كدولة المرابطين والموحدين التي كانت المغرب خلالها تتمتع بالوحدة السياسية والجغرافية ، فكانوا يطلقون لفظة المغرب الأقصى ويقصدون به مراكش والمغرب الأوسط الجزائر والمغرب الأدنى ويعنون به تونس أو إفريقية ، لكن لم تحدد مفاهيم من الناحية الجغرافية لأنه لا توجد حواجز طبيعية تميز بين حدود الجزائر والمغرب وتونس هذا من الناحية الجغرافية ، أما من الناحية البشرية فقد تميز سكانه على غرار سكان العالم الذين اعتنقوا الإسلام باحتفاظهم ونعني البربر في بعض المناطق الجبلية بلغتهم الأصلية كلغة حديث بينهم ، وفي القرن 4هـ شهدت منطقة المغرب توافد الهجرات العربية كهجرتي بني هلال وبني سليم.

1-الصراع السياسي في دول المغرب العربي:

بعد اضمحلال دولة الموحدين بدأت سمات الانقسام تتضح في المغرب وظهرت على عقبه ثلاث دويلات هي: دولة الحفصيين في تونس ودولة بنو عبد الواد في المغرب الأوسط وبنو مرين في المغرب الاقصى، هذا الانقسام لم يتضح بشكل أكبر إلا في القرن السادس عشر لأن كل من دولتي بني مرين والحفصيين حاولتا بسط نفوذهما في المغرب بأسره تأسيا بدولة الموحدين، غير أنهما أخفقتا في ذلك ولم تتمكن من تحقيق هذا المبتغى غلا لفترة وجيزة وسرعان ما ترجعان إلا حدودهما الإقليمية.

لكن ما بدأت الدولة الموحدية في الانهيار حتى سارع حكام الدولة الزيانية إلى الإستقلال بأنفسهم والسيطرة على المغرب الأوسط، ولم يكن هذا الاستقلال إلا بداية لتفكك المغرب العربي إلى دويلات استقلت بنفسها عن سلطة الموحدين. ثم سرعان ما أصبحت دولا متقاتلة فيما بينها، حيث حاول المرينيون والحفصيون مرارا احتلال الجزائر وإلحاقها بدولتهم، فاحتل الحفصيون بجاية وقسنطينة والزاب.

*__دولة الحفصيين (1228-1574)__: هي أسبق الدول ظهورا وأوسعها انتشارا تنتمي إلى أبي حفص عمر رأس قبيلة الهنتاتة من مجموعة مصمودة العربية ، كان الموحدون قد عهدوا إلى أفراد تلك الأسرة لعمالة تونس سنة 1250م فاستأثروا بهذا المنصب حتى تولاه أبو زكرياء سنة 1228م فأظهر نزعته الاستقلالية وتوارثت أسرته حكم البلاد لمدة تتجاوز ثلاثة قرون واتسع نفوذها من طرابلس إلى طنجة ودفع بنو مرين أحيانا الجزية لهم، واعترف شريف مكة بسيادتهم ولقب ملوكها بلقب أمير المؤمنين ،وأضحت تونس في عهدهم من أهم مراكز الثقافة العربية ،وقدمت

مساعدات للإمارات المتهاوية في الأندلس كما عقدت اتفاقيات مع دول أوربية وأقامت القنصليات قبل ان تسوء علاقاتهم مع الدول الاوربية بحكم تجدد الصراع الصليبي في القرن السادس عشر ميلادي ، بعدها بدأ الضعف ينخر جسد هذه الدولة بفعل الانقسامات الموجودة في البيت الحاكم ، حيث نجد أمير حفصي في تونس وثان في بجاية وثالث في قسنطينة ، وانتهى أمرهم بوضع دولتهم تحت الحماية الإسبانية .

***دولة بني عبد الواد** :(**1235-1554م**):ظهرت في منتصف القرن الثالث عشر تنتمي لقبيلة زناتة ، اتخذت من تلمسان عاصمة لها ومؤسس هذه الدوله هو "يغمراسن بن زياد "وهو من أصل بربري ، ازدهرت تلمسان في عهد هذه الدولة وأضحت مركزا ثقافيا ،كما اشتهرت بحدائقها الغناء حكمت هذه الدولة الجزء الغربي أي ما يقابل الجزائر حاليا وطمعت كل من دولة الحفصيين وبني مرين في الاستيلاء عليها وفعلا تمكنت هذه الاخيرة من الاستيلاء على دولة بني عبد الواد في القرن الرابع عشر إلى ان أحياها من جديد " أبي حمو الثاني "(1359-1389)وأصبحت تعرف باسم الفرع الجديد وهو بنو زيان ورغم اعتبار تلمسان حاضرة هذه الدولة الا ان المدن الساحلية كانت تكون جمهوريات مستقلة بما يشبه الجمهوريات القائمة على الساحل المواجه لايطاليا وساهم هذا التفكك في طمع الصقليين في الجزائر فاستولوا على مدن جزائرية واحتلوها فترة من الزمن ولم تحقق الجزائر وحدتها الا في العهد العثماني.

* **دولة بني مرين** (**1244-1465م**): تنتمي بدورها هي الاخرى لقبيلة زناتة البربرية بدأت دولتهم في جنوب مراكش في بداية القرن الثالث عشر وانتشر نفوذهم بفضل جهود ابي يحي عبد الحق الذي ضم فاس ومكناس ولكن الدولة لم تتشكل بعد الا بعد ضم ابو يوسف يعقوب الاستيلاء على مراكش 1229م وبما ان مراكش كانت مركز الثقل في الدولة الموحدية فقد طمع بنو مرين في وراثتها للهيمنة على المغرب بأسره غير انه كان يعوزهم نفوذ الحفصيين

قاد أبو الحسن المريني حملة على تونس سنة 1347لكنه انهزم فيها وكادت تطيح بالحكم المريني في مراكش ، وعلية فالدولة المرينية أصبحت دولة مراكشية محلية ، وقدم المرينيون مساعدات جمة للأندلسيين وطمع المرينيون في بعض الموانئ في الأندلس ودخلوا في صراع مع بني الأحمر مما أضعف القدرة الدفاعية للمسلمين في المقاومة وتعرضت مراكش نفسها للغزو أين أصبحت الحملات الصليبية تتردد على موانئها انطلاقا من القرن الخامس عشر وبعد مقتل أبي سعيد المريني انتشرت المنافسات الداخلية كما طمع بنو وطاس في الاستئثار بالسلطة وكان لهم ذلك في منتصف القرن الخامس عشر ، ثم استعاد المرينيين الحكم بعض الشيء بعد مقتل الوزير يحي الوطاسي 1458م ولكن محمد الشيخ الوطاسي استطاع أن يسترد حكمه في فاس وامتد حكمه (1472-1504م)ولكنه لم يستطع تحقيق وحدة

المراكشيين حيث بقي المرينيون يحكمون مدينة مراكش عاصمة الجنوب والقسم يسمى بمملكة فاستعان الوطاسيين بالبرتغاليين ضد المرينيين ولم ينقذ البلاد سوى ظهور الأسرة السعدية.

وأصبحت الدول الناشئة في شبه الجزرة الإيبرية تظهر نواياها في الاستيلاء على المغرب قبل سقوط غرناطة ففي عام 1401هاجمت قشتالة تطوان وأخذ أهلها عنوة وفي 1415م قاد البرتغال حملة على سبتة وقد بلغ التفكك السياسي أقصاه في أوائل القرن الخامس عشر في دول المغرب فضلا عن التهديدات الخارجية ، حيث استنجدت طرابلس بفاس ضد الحفصيين ،وفي شرق الجزائر استمر النزاع بين الأمراء الحفصيين والإمارات البربرية الصغيرة في بلاد القبائل ، مما أسهم في تسهيل عملية الغزو الإيبيري لبلاد المغرب والذي تراوحت دوافعه ما بين الدوافع الدينية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

2-دوافع الغزو الإيبري لبلاد المغرب العربي:

- الدافع الديني: السعي لمحو النفوذ الإسلامي من منطقة المتوسط خاصة بعد التحالف الذي جمع فرديناند وايزابيلا.
- الدافع الاقتصادي: تنمية التجارة والبحث عن الأسواق التجارية وخنق تجارة القوافل العابرة لشمال إفريقيا وخلق طرق تجارية لهم.
- السيطرة على المنافذ البحرية للاتصال المباشرة مع بلاد السودان.
- الدافع السياسي:
- مطاردة مسلمي الأندلس الفارين لشمال إفريقيا.
- توسيع نفوذهم وإنشاء إمبراطورية مترامية الأطراف.
- صرف النظر عن المشاكل الداخلية.
- وضح حد لنشاط البحارة المسلمين الذين ازدادت وطأتهم عليهم وتهديدهم المستمر لتجارتهم.

3-الاحتلال البرتغالي والاسباني لمناطق المغرب العربي:

ان الضعف والانحلال الذي شهدته مناطق المغرب وخاصة المغرب الأوسط جعلها عرضة لحملات استيطانية من قبل البرتغاليين والإسبان خلال العقد الأخير من القرن 15 وتشجعت اسبانيا على مهاجمة أراضي المغرب ووجهت اهتمامها بشكل إلى الجزائر وتونس في حين تركزت الحملات البرتغالية على المناطق المغرب الأقصى، ثم ان الهجوم الاسباني على مناطق المغرب لم يكن بغالبه يحمل مضامين اقتصادية ،بل كان طابعه الرئيسي الانتقام من المسلمين واستمر ذلك حتى

وفاة الملكة ايزابيلا سنة 1504م ،وكان لوصايا التي عثر عليها فيما بعد الدور الرئيسي في مواصلة الحملات العسكرية ضد مناطق المغرب ، واحتدم الصراع ما بين سكان المغرب والإسبان خاصة بعد استقرار الأندلسيين المهجارين على سواحل المغرب فانظموا إلى السكان الأصليين في مهاجمة الثغور الاسبانية ردا على اعمال الظلم والإرهاب التي مارسها الاسبان ضد الأندلسيين المهاجرين هذه العوامل مجتمعة دفعت المسلمين الى مهاجمة الإسبان والانتقام منهم.

وكرد على تسلل الاندلسيين للثغور الاسبانية ونهبها وتدميرها بدأ الملك الاسباني فرديناند يقوم بتوجيه حملات عسكرية منظمة إلى مناطق المغرب بغرض السيطرة والانتقام من المسلمين والتزاما بوصايا الملكة ايزابيلا وتحقيقا لهوسه الاستعماري فاختار دون دييجو فرناند دوكوردوفا قائداً عاماً للحملة الموجهة إلى السواحل المغربية وفي 10 سبتمبر 1505م رست الحملة الاسبانية أمام المرسى الكبير وقد ذهل سكان المنطقة من الهجوم المفاجئ الذي حقق الاسبان من خلاله نصرا ساحقا ، لدرجة دفعت حامية الميناء للاستلام وقد ارتكبت الاسبان فيها أعمالا وحشية قلما عرف التاريخ لها مثيل، وتفيد المصادر الاسبانية أن المدينة غدت خالية من الطيور والحيوانات ولم ينج من سكان الجزائر إلا من تمكن من الفرار إلى قمم الجبال .

ولدى سماع الاسبان بانتصار أسطولهم البحري أقاموا الأفراح ابتهاجا بهذا النصر واستدعى الملك فرديناند قائد الحملة لإكرامه وتهنئته على ما حققه من نصر مكنه من إعادة اعتباره واكسبه إعجاب وثقة العالم المسيحي.

وحول إستراتجية الاحتلال الإسباني للمنطقة الواضح أنها ارتكزت اسبانيا في احتلالها على المنافذ الاستراتيجية كاحتلالها للمرسى الكبير 1505م ثم حجر باديس بالمغرب الأقصى 1508م ثم مدينة وهران 1509، كما عملت كل ما بوسعها في سبيل الحفاظ على إمارة تلمسان لكونها تشكل بوابة رئيسية نحو الإمارات الإفريقية جنوب الصحراء أين كانت تمر عبرها كميات ضخمة من السلع.

كما قاد الإسبان حملة لاحتلال طرابلس الغرب، وذلك بعد أن وقعوا سلما مع ملك تلمسان يدفع الأخير بموجبه الضريبة، وقد منحت قيادة الجيش إلى بيدرو نافارو حيث تكون الجيش من 15 ألف جندي، من بينهم 3 آلاف مقاتل من صقلية، واختير المالطي جوليانو أبيلا دليلا للحملة باعتباره ذا معرفة جيدة بالمدينة.
غادر الأسطول مالطة في 20 جويلية سنة 1510، ووصل قبالة السواحل الطرابلسية في 24 جويلية أين نصبت المدافع مباشرة، وبدأ قصف المدينة ثم اجتاح البحارة الاسبان شوارعها، وتمكنوا من احتلال المدينة بعد ثلاثة ساعات من المعارك الضارية، ولكن ما إن احتل الاسبان المدينة حتى قتلوا بين 3 آلاف و5 آلاف نسمة، واستعبدوا بين الخمسة آلاف والستة آلاف طرابلسي.

ورغم نجاح اسبانيا في مد نفوذها على سواحل المغرب الا أنها لم تتوسع في المنطقة وإنما اكتفت بسياسة الاحتلال المحدود، أين شرعت في تحويل الموانئ إلى مراكز وأقامت بها حاميات وهذه السياسة ساهمت في إفشال المشروع التوسعي لاسبانيا في شمال إفريقيا، في مقابل نجاح العثمانيين في مد نفوذهم والاستفادة من دعم السكان وحسن تموضعهم عبر سيطرتهم على المدن التي تتحكم في الطرق البحرية كدلس أو تلك التي تتحكم في الطرق البرية كالبليدة وتلمسان.

وهكذا نرى أن الاحتلال الاسباني ليس سوى امتداد لحروب ما يسميه الاسبان ب" الإسترداد"، أين جعلت هاته الحروب الوازع الديني أساسا لها، وكان لهذا أثره في بشاعة الج ا رئم التي أوقعها المحتلون في الساكنة المحلية المعزولة، أين لم يستطع القادة الإسبان منع جنودهم المدفوعين بحماسهم الكنسي من التقتيل ضد أهل المغرب العربي.

لقد شارك الأتراك سكان المنطقة خلال هذه القرون مصابهم وجهادهم فاستحقوا بذلك تقدير سكان المنطقة وغدا سكان المنطقة ينظرون للأتراك على اخوة لهم في الدين الإسلامي، ومهما يكن فقد كان لمجيء آل بربروسا إلى مناطق المغرب واستقرارهم فيها وتحملهم أعباء الدفاع عنه وانتقاما من المسيحيين الذين شردهوم من جزيرة مديلي، والذي أسفر عنه خروج الاسبان من المناطق التي احتلوها، فإسبانيا لم تكد تضع أقدام لها في سواحل المغرب حتى ظهر على مسرح الأحداث الأخوين إبني يعقوب اللذين سيوجهان الأحداث بشكل مختلف هذه المرة.